تجليات قيم الرحمة في الإسلام من خلال سير الصحابة رضي الله عنهم، وتطبيقاتها العملية

إعداد:
د. الحسن البربوشي

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد؛

فإن الله تعالى ، حين اختار نبيه محمداً ﷺ، لتبليغ رسالته؛ اختار له أصحاباً على شاكلته عزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه، عاشوا تحت راية نبيهم سعداء وماتوا صديقين وشهداء.

فالصحابة رضي الله عنهم، هم حملة الإسلام وحفظته بعد رسول الله ﷺ، اختارهم الله واصطفاهم لصحبة نبيه ﷺ، ونشر رسالته من بعده. عدلهم وزكاهم ووصفهم بأوصاف الكمال في غير ما آية من كتاب الله، فقال تعالى : ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب].

وقال عز وجل: ﴿رِّجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ [النور].

وأثنى رسول الله ﷺ، على منزلتهم فقال، كما في صحيح البخاري: «لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»[1]

(١) أخرجه البخاري في صحيحه،، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ لو كنت متخذاً خليلاً، رقم: ٣٤٧٠.

قال الحسن البصري: «من كان منكم متأسيا فليتأس بأصحاب محمد ﷺ؛ فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوبا وأعمقها علما، وأقلها تكلفا وأقومها هديا وأحسنها حالا، قوم اختارهم الله تعالى لصحبة نبيه ﷺ، فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم في آثارهم؛ فإنهم كانوا على الهدى المستقيم»[1]. ومن هنا كان لزاما علينا معرفة أخبارهم وسيرهم، ونشرها بين المسلمين عظة وذكرى لمن يريد أن يتعظ، فهم مثال يحتذى ونبراس يقتدى، ليعرف المتأخر للمتقدم فضله ويسعى على دربه ونهجه، فتحوا القلوب بعدلهم بالقرآن والإيمان، والقرى بالجهاد بالسيف والسنان.

ومن القيم السامية التي تعلمها الصحابة من نبيهم ﷺ، وعملوا بها وتمثلوها في حياتهم، أفرادا وجماعات، أحسن تمثيل: قيم الرحمة، فكما كان الرسول ﷺ، أرحم الناس، وأرسله الله رحمة للعالمين، فدعا الناس إلى الإسلام بأخلاقه وتصرفاته قبل أقواله، كذلك أصحابه من بعده، فهم الذين أسلموا على يديه وعاينوا أخلاقه وأفعاله وتربوا عليها فطبقوها في حياتهم سواء فيما بينهم أو بينهم وبين غيرهم فاستطاعوا بمثل هذه القيم أن يؤسسوا مجتمعات حضارية فاضلة لم تعرف البشرية لها نظيرا في تاريخها الطويل الممتد عبر الزمن.

وانسجاما مع المحور الخامس من هذه الندوة المباركة، وهو: نماذج وتطبيقات المسلمين للرحمة مع المسلمين ومع غير المسلمين، سنحاول إن شاء الله، من خلال هذا البحث، التعرف على جوانب الرحمة في سير الصحابة ﷺ عبر رصد التطبيقات العملية لهذه القيم سواء فيما بينهم، أو فيما بينهم وبين غير المسلمين. وقد جعلته في محورين:

فجعلت المحور الأول خاصا بتجليات الرحمة في مجتمع الصحابة،

(١) ابن عبدالبر في جامع بيان العلم وفضله ١٥٨/٢

تناولت فيه ثناء الله، عز وجل، على الصحابة بالرحمة، وتربية النبي ﷺ أصحابه على قيم الرحمة، ثم تطرقت لتجليات قيم الرحمة عند الصحابة ﷺ المتمثلة في قيم: المحبة وحسن الخلق والرفق بالآخر والتيسير والوسطية.

وخصصت المحور الثاني للتطبيقات العملية لقيم الرحمة من خلال سير الصحابة، عبر بيان رحمة الصحابة بعضهم بعضاً، ومنها رحمة الصغير واليتيم والأرملة والمسكين والحيوان، وبيان رحمتهم لغير المسلمين مثل الرحمة بالرهبان والفقراء غير المسلمين وصلة الأرحام منهم وغيرها، ثم ختمت بخاتمة ضمنتها أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال هذه الدراسة.

المحور الأول
تجليات الرحمة في مجتمع الصحابة

١. ثناء الله عز وجل على الصحابة بالرحمة

لقد أثنى الله عز وجل في كتابه العزيز على صحابة رسوله ﷺ، فهم حملة الشريعة الذين اختارهم الله ليكونوا أصحاباً لنبيه، فذكرهم الله في كتابه وأثنى عليهم وبين فضلهم في آيات كثيرة؛ فبين سبقهم إلى نصرة الرسول ﷺ، وما أعده لهم في الجنة فقال عز من قائل: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة] كما أثنى على نصرتهم للرسول في ساعة العسرة فقال: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [التوبة] ، وأكد أن مبايعتهم للرسول إنما هي مبايعة لله عز وجل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [الفتح].

ومن الصفات الحميدة والأخلاق الرفيعة التي مدح فيها القرآن الكريم صحابة رسول الله وأثنى عليهم؛ صفة الرحمة، فقد وردت آيات كثيرة تزكي وتثني على هذا الخلق الرفيع الذي يمتاز به الصحابة رضي الله عنهم فقال عز وجل:

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [الفتح:٢٩]، فبينت الآية ما في صدور الصحابة من الرحمة فيما بينهم، وزكت هذه الفضيلة فيهم، ومن زكاه الله تعالى فلا مجال لأحد من الخلق أن يطعن فيه من أي: وجه كان. وقد فسر قتادة ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: «ألقى الله في قلوبهم الرحمة». وقال في التحرير والتنوير: «وفي الجمع لهم بين هاتين الخلتين المتضادتين، الشدة والرحمة، إيماء إلى أصالة آرائهم، وحكمة عقولهم، وأنهم يتصرفون في أخلاقهم وأعمالهم تصرف الحكمة والرشد، فلا تغلب على نفوسهم محمدة دون أخرى، ولا يندفعون إلى العمل بالجبلة وعدم الرؤية»[(١)]. ومن الأمثلة على هذا التراحم بين الصحابة ما روي عن عائشة قالت: «حضر رسول الله ﷺ، وأبو بكر وعمر، سعد بن معاذ، وهو يموت في القبة التي ضربها عليه رسول الله ﷺ، في المسجد. قالت: والذي نفس محمد بيده إني لأعرف بكاء أبي بكر من بكاء عمر، وإني لفي حجرتي، فكانا كما قال الله! ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾.[(٢)]

كما ذكر القران الكريم بنعمة الله عليهم بتأليف قلوبهم، ونشر الأخوة بينهم بعد أن كانوا أعداء يضرب بعضهم بعضًا فقال عز وجل: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران:١٠٣]. وقال: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنفال]. قال ابن عاشور: «فصار الذين دخلوا في الإسلام إخوانًا وأولياء بعضهم لبعض، لا يصدهم عن ذلك اختلاف أنساب ولا تباعد مواطن ولقد حاول حكماؤهم وأولو الرأي: منهم

(١) ابن عاشور في التحرير والتنوير ١/٤٠٨٣.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٢٨/٤٢ وابن أبي شيبة في مصنفه ٣٧٣/٧ وابن حبان في صحيحه، ٤٩٨/١٥. وأبو نعيم في معرفة الصحابة ٤٤٩/٨ من طريق محمد بن عمرو عن أبيه عن علقمة ابن وقاص، قال: أخبرتني عائشة. قال الهيتمي في مجمع الزوائد١٩٨/٦: رواه أحمد وفيه محمد بن عمرو بن علقمة وهو حسن الحديث وبقية رجاله ثقات وقال الإلباني في السلسة الصحيحة١/٦٦ رقم: ٦٧: «وهذا إسناد حسن».

التأليف بينهم وإصلاح ذات بينهم بأفانين الدعاية من خطابة وجاه وشعر، فلم يصلوا إلى ما ابتغوا، حتى ألف الله بين قلوبهم بالإسلام، فصاروا بذلك التأليف بمنزلة الإخوان»[1]. فبهذه المعجزة الإلهية والمنحة الربانية لم يكن أحد يستطيع أن يؤلف بينهم نظراً لشدة العداوة التي كانت بينهم لولا رحمة الله وتوفيقه وسداده.

كما أثنى الله عز وجل على صحابة نبيه بالمحبة التي في قلوبهم فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر]، فهذه الآية تصف حب الأنصار للمهاجرين، وتبين ما في صدورهم من المحبة والصدق والإيثار. قال ابن عاشور: «وهذا ثناء عليهم بما تقرر في نفوسهم من أخوة الإسلام إذ أحبوا المهاجرين، وشأن القبائل أن يتحرجوا من الذين يهاجرون إلى ديارهم لمضايقتهم»[2].

فالقرآن الكريم يثني على الصحابة ﷺ بكل خصالهم، وأن الله قد أنعم عليهم بخصال وصفات لا يستطيع الإنسان مهما بلغ من العلم والقوة أن يصل إليها، فيكون هذا الثناء الإلهي والتزكية الربانية سداً لأي: ذريعة للطعن في الصحابة الكرام في السابق والحاضر والمستقبل، فـ ﷺ ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون.

٢. تربية النبي ﷺ، أصحابه على قيم الرحمة

كان الرسول ﷺ أرحم الناس على الإطلاق بشهادة القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ

(١) ابن عاشور في التحرير والتنوير ٧٩٧/١
(٢) ابن عاشور في التحرير والتنوير ٤٣٦٢/١.

حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ [التوبة] ، وهذه الرحمة النبوية تشمل كل تفاصيل حياته وجزئياتها، كما شهد له القرآن الكريم بأنه رحمة للعالمين في قوله تعالى : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ [الأنبياء] ، وكما جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: « وإنما بعثني رحمة للعالمين»[١]. والصحابة الكرام رضي الله عنهم الذين عاصروا رسول الله ﷺ وأسلموا على يديه، فعززوه ونصروه واتبعوا الدين الذي جاء به، تلقوا منه هذه القيم وامتثلوها في حياتهم الخاصة والعامة فتخلقوا بأخلاقه، وطبقوا توجيهاته وأوامره، فكان يوجههم إلى خلق الرحمة ويربط بينه وبين كمال الإيمان فقال ﷺ: «أكمل المؤمنين ايماناً أحسنهم خلقاً»[٢]. كما كان يدعوهم إلى الرحمة بالجميع صغيراً كان أم كبيراً، فعن ابن عباس قال: «قال رسول الله ﷺ: ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا»[٣]. إضافة إلى ذلك يبين لهم أن الرحمة سبيل إلى النجاة من النار، عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ، قال: «حرم على النار كل هين لين سهل قريب من الناس»[٤]. ويبين لهم أن رحمة العباد سبب لنزول رحمة الله، فعن عبدالله بن عمرو ابن العاص أن النبي ﷺ قال: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا أهل الأرض يرحمكم أهل السماء»[٥].

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٦٤٦/٣٦، وأبو داود في سننه كتاب السنة، باب في النهي عن سب أصحاب رسول الله ﷺ رقم: ٤٦٦١ ٣٤٧/٤. من طريق عمر بن قيس عن عمرو بن أبي قرة. قال الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة: ٢٥٧/٤ رقم: ١٧٥٨ : «إسناده صحيح رجاله كلهم ثقات».

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٣٦٤/١٢. والترمذي في سننه كتاب الإيمان باب استكمال الإيمان وزيادته ونقصانه رقم ٢٦١٢، ٩/٥. وأبو داود في سننه كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه رقم ٤٦٨٤، ٣٥٤/٤.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه كتاب البر والصلة باب رحمة الصبيان رقم ١٩١٩، ٣٢١/٤.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده ٥٣/٧ من طريق سعيد بن عبدالرحمن الجمحي عن موسى بن عقبة عن عبدالله بن عمر الأودي. وعبدالله بن عمرو الاودي لم يرو عنه غير موسى بن عقبة ولم يؤثر توثيقه عن غير ابن حبان وبقية رجاله ثقات، وذكر الامام الإلباني في السلسة الصحيحة ١٢/٣ رقم: ٩٣٨ شواهد للحديث وقال: وبالجملة فالحديث صحيح بمجموع هذه الشواهد، والله أعلم.

(٥) أخرجه أحمد في مسنده ٣٣/١١، والترمذي في سننه كتاب البر والصلة، باب رحمة المسلمين رقم: ١٩٢٤، ٣٢٣/٤ وأبو داود في سننه كتاب الأدب، باب في الرحمة رقم ٤٩٤٣، ٤٤٠/٤.

كما كان ﷺ، يستغل كل مناسبة ليغرس في نفوسهم القيم النبيلة والأخلاق الفاضلة، روى عمر بن الخطاب أنه: «قدم على رسول الله ﷺ، بسبي فإذا امرأة من السبي تبتغي إذا وجدت صبياً في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته. فقال لنا رسول الله ﷺ: أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار. قلنا لا والله، وهي تقدر على أن لا تطرحه. فقال رسول الله ﷺ، : الله أرحم بعباده من هذه بولدها»[1]. فاستغل الرسول ﷺ، فرصة مشاهدة رحمة المرأة بولدها ليذكرهم برحمة الله تعالى بخلقه.

وبعد غزوة خيبر مر الصحابي الجليل بلال بن رباح بامرأتين من أسرى الحصن على قتلاهم، فصاحت إحداهما وحثت على رأسها التراب، فغضب رسول الله ﷺ، وقال له: «أنزعت منك الرحمة يا بلال، حين تمر بامرأتين على قتلى رجالهما»[2]. فلم تمنعه شدة الحرب وما كان فيها من شنآن ضد العدو من تعليم أصحابه أن قيم الرحمة التي جاء بها الإسلام قيم إنسانية عالمية يتصف بها المسلم في حله وترحاله.

وروت عن عائشة رضي الله عنها قالت: «قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ، فقالوا أتقبلون صبيانكمؤ فقالوا: نعم. فقالوا لكنا والله ما نقبل. فقال رسول الله ﷺ: وأملك إن كان الله نزع منكم الرحمة»[3]. وروى عروة بن الزبير عن أبيه: أن رسول الله ﷺ، قبل حسناً وضمه إليه وجعل يشمه، وعنده رجل من الأنصار، فقال الأنصاري: « إن لي ابناً قد بلغ ما قبلته»، فقال رسول الله ﷺ، « ارأيت إن كان الله نزع الرحمة من قلبك فما ذنبي؟[4]».

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته رقم: ٥٦٥٣، ٥/٢٢٣٥. ومسلم في صحيحه،، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه رقم٧١٥٤، ٨/٩٧.
(٢) الطبري في تاريخه ٢/١٣٧، وابن هشام في تهذيب سيرة ابن إسحاق ٢/٣٣٦.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب رحمته الصبيان والعيال رقم ٦١٦٩، ٧/٧٧.
(٤) أحمد في فضائل الصحابة ٢/٧٦٩، والحاكم في المستدرك ٣/١٨٦. قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي في التلخيص..

وكان من هديه ﷺ، أنه إذا أرسل أحدًا من أصحابه في بعض أموره، أمرهم بالتيسير ونهاهم عن التنفير؛ فعن أبي موسى قال: «كان رسول الله ﷺ، إذا بعث أحداً من أصحابه في بعض أمره قال: بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا»[1].

وبهذا التعليم النبوي والتوجيه والتربية المحمدية تربى الصحابة الكرام على قيم الرحمة وعاشوا بها في حياتهم بكل جزئياتها، وتمثلوها في واقعهم مع كل أطياف المجتمع صغيرهم وكبيرهم، قويهم وضعيفهم، غنيهم وفقيرهم، ذكرهم وأنثاهم، فأسسوا بذلك مجتمع الرحمة والأخوة والمحبة الذي لم تستطع كل النظريات السابقة واللاحقة أن تؤسس لمثله، فصارت بحق معجزة نبوية في تأسيس المجتمعات الفاضلة.

٣. تجليات قيم الرحمة عند الصحابة رضي الله عنهم

٣-١. قيمة المحبة

من القيم التي ركز الإسلام على ترسخيها في نفس الإنسان المسلم، قيمة المحبة بين مختلف أفراد المجتمع، وكان الرسول ﷺ، يربي أصحابه على هذه القيم السامية التي تعتبر الأساس لبناء مجتمع حضاري، فكان يحثهم على نشر المحبة فيما بينهم، فيقول النبي الكريم ﷺ: «قال الله تبارك وتعالى وجبت محبتي للمتحابين في والمتجالسين في والمتزاورين في والمتباذلين في»[2]. كما كان، ﷺ، يذكرهم أن نشر المحبة بين المسلمين من موجبات الإيمان، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، خادم رسول الله ﷺ، أن

(١) أخرجه مسلم في صحيح، كتاب الجهاد والسير، باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير رقم: ٤٦٢٢، ٥/١٤١.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الجامع، باب ما جاء في المتحابين في الله رقم ٣٥٠٧، ٥/١٣٩٠. وأحمد في مسنده ٣٦/٣٥٩.

النبي ﷺ، قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[1]. ومن أروع الأمثلة التي عرفها التاريخ الإنساني، ما قام به الرسول ﷺ، مباشرة بعد الهجرة النبوية، حيث آخى ﷺ، بين المهاجرين والأنصار، وجعل لكل صحابي من المهاجرين أخا له من الصحابة الأنصار، فسطروا بذلك منهجاً حضاريا لم تشهد الإنسانية له مثيلاً، وطبق الصحابة ﷺ، أوامر نبيهم أحسن تطبيق حتى جاء الثناء الإلهي بوصفهم بأحسن الأوصاف فقال عز من قائل: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر:٩] وقد ورد في الصحيح عن أبي هريرة أن رجلاً من الأنصار نزل به ضيف فلم يكن عنده إلا قوته وقوت صبيانه، فقال لامرأته: «نومي الصبية، وأطفئي السراج، وقربي للضيف ما عندك، فنزلت هذه الآية»[2].

٣-٢. قيمة حسن الخلق

ترتبط قيمة حسن الخلق بقيمة المحبة التي قبلها، فحسن الخلق يحبب العبد إلى الناس، ويحبب الناس إلى العبد، وقد نشأ الصحابة في حب نبيهم الذي كان المثل الأعلى في حسن الخلق، فأصبحوا بذلك مضرب المثل في الأخلاق الرفيعة، عن أبي ثعلبة الخشني قال: قال رسول الله ﷺ: « إن من خياركم أحسنكم أخلاقاً»[3]. وكان الرسول ﷺ، يحث أصحابه على كل تفاصيل الأخلاق حتى البشاشة والابتسامة، كما قال عبدالله بن الحارث ﷺ: «ما رأيت أحداً أكثر تبسّماً من رسول الله ﷺ»[4]. وعن أبي ذر ﷺ قال:

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه رقم ١٣، ١٤/١. ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان. باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه رقم ١٧٩، ٤٩/١.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الأشربة باب إكرام الضيف وفضل إيثاره رقم٥٤٨١، ١٢٨/٦.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب باب صفة النبي ﷺ رقم ٣٣٦٦ ١٣٠٥/٣. ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل باب كثرة حيائه رقم: ١٦٧٧، ٧٨/٧.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده ٢٥٢/٢٩، والترمذي في سننه كتاب المناقب ، باب في بشاشة النبي ﷺ.٣٦٤١. قال أبو عيسى «هذا حديث حسن غريب، وصححه الألباني في مختصر الشمائل صفحة ١٢٠».

قال رسول الله ﷺ: «تبسمك في وجه أخيك لك صدقة»[١]. وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «كل معروف صدقة، وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق»[٢].

كما أن من حسن الخلق الابتعاد عن الغلظة والعنف، سواء في الأقوال أو الأفعال، لأنها تنفر الناس من العبد، وتهدم ما تبقى من أواصر المحبة والألفة بين المسلمين، وقد بين ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران].

ومن الأمثلة التي سطرها الصحابة في حسن الخلق؛ ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما، أن رجلًا استأذن على عمر رضي الله عنه، فآذن له فقال له: «يا ابن الخطاب، والله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر رضي الله عنه، حتى هم أن يوقع به، فقال الحر بن قيس: يا أمير المؤمنين، إن الله عز وجل قال لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف] وإن هذا من الجاهلين. فوالله ما جاوزها عمر رضي الله عنه حين تلاها عليه، وكان وقافًا عند كتاب الله عز وجل»[٣].

وشتم رجل ابن عباس رضي الله عنهما، فلما قضى مقالته قال: «يا عكرمة، انظر هل للرجل حاجة فنقضيها؟ فنكس الرجل رأسه واستحي»[٤].

(١) أخرجه الترمذي في سننه كتاب البر والصلة باب صنائع المعروف رقم ١٩٥٦. قال أبو عيسى هذا حديث حسن غريب وصححه الإلباني في السلسلة الصحيحة ١١٣/٢.

(٢) أخرج البخاري صدره في صحيحه، كتاب الأدب باب كل معروف صدقة رقم٥٦٧٥، ٢٢٤١/٥. وأخرج الحديث كاملا؛ أحمد في مسنده ١٦١/٢٣.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، رقم: ٦٨٥٦، ٢٦٥٧/٦.

(٤) محب الدين الطبري في ذخائر العقبى ٢٣٤/١ ويوسف بن محمد الصالحي الشامي في سبل الهدى والرشاد ١٣٠/١١.

وكان أبو الدرداء يقول: إن العبد المسلم يحسن خلقه حتى يدخله حسن خلقه الجنة، ويسئ خلقه حتى يدخله سوء خلقه النار[١].

٣-٣. قيمة الرفق

ويقصد بالرفق لين الجانب، وهو ضد العنف، قال القاري: «المداراة مع الرفقاء، ولين الجانب، واللطف في أخذ الأمر بأحسن الوجوه»[٢]. وقد كان الرسول ﷺ، أكثر الناس رفقاً، وكان يوصي أصحابه بالرفق ويدلهم عليه؛ فيقول ﷺ: «إن الله رفيق يحب الرفق»[٣]. فيبين لهم ﷺ، أهميته في حياة المجتمع المسلم بقوله: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه»[٤].

لقد كان ﷺ، يتمثل الرفق في كل أحواله وشؤون حياته، مما جعل الصحابة رضي الله عنهم، يقتدون به ويتمثلون أقواله وأفعاله وكل أخلاقه، فوضعوا بذلك الأسس المتينة لبناء الحضارة الإسلامية، ومن أمثلة رفق الصحابة؛ ما رواه زيد بن وهب حيث قال: «خرج عمر رضي الله عنه، ويداه في أذنيه وهو يقول: يا لبيكاه يا لبيكاه، قال النَّاس: ما له؟ قال: جاءه بريد من بعض أمرائه أنَّ نهرًا حال بينهم وبين العبور ولم يجدوا سفنًا، فقال أميرهم: اطلبوا لنا رجلًا يعلم غور الماء. فأتي بشيخ فقال: إني أخاف البرد وذاك في البرد، فأكرهه فأدخله، فلم يلبثه البرد، فجعل ينادي: يا عمراه يا عمراه! فغرق، فكتب إليه فأقبل، فمكث أي: امًا معرضًا عنه، وكان إذا وجد على أحد منهم فعل به ذلك، ثم قال: ما فعل الرجل الذي قتلته؟ قال: يا أمير المؤمنين، ما تعمدت

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ١٠٨/١، والبيهقي في شعب الإيمان ٣٦٥/٦.
(٢) علي القاري في مشكاة المصابيح ٣١٧٠/٨.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين ومقاتلتهم، باب إذا عرض الذمي بسب النبي ﷺ رقم: ٦٥٢٨، ٢٥٣٩/٦، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والأدب، باب فضل الرفق رقم ٦٧٦٦، ٢٢/٨.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والأدب، باب الرفق رقم: ٦٧٦٧، ٢٢/٨،

قتله، لم نجد شيئًا يعبر فيه، وأردنا أن نعلم غور الماء، ففتحنا كذا وكذا، وأصبنا كذا وكذا، فقال عمر ﷺ: لرجل مسلم أحبُّ إليَّ من كلِّ شيء جئت به، لولا أن تكون سُنَّة لضربت عنقك، اذهب فأعط أهله ديته، واخرج فلا أراك»[1].

وكان عمر بن الخطاب يذهب إلى العوالي كل يوم سبت، فإذا وجد عبدًا في عمل لا يطيقه وضع عنه منه[2].

٣-٤. قيمة التيسير

من القيم السامية التي غرسها الرسول ﷺ، في نفوس أصحابه الكرام؛ التيسير، فقد كان الرسول يختار الأي: سر من الأمور كلها، كما قالت عائشة ﷺ: «ما خير رسول الله ﷺ، بين أمرين إلا أخذ أي: سرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه»[3]. ولذلك كان ﷺ، يوصي أصحابه بالتيسير في كل الأمور، ومن ذلك أنه، ﷺ، لما بعث معاذاً وأبا موسى إلي اليمن قال لهما: «يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا»[4]. وسيرا على هذه السنة النبوية، نهج الصحابة ﷺ، منهج التيسير الذي تعلموه من نبيهم، صلوات ربي وسلامه عليه، فعن عمير بن إسحاق قال: «لما أدركت من أصحاب رسول الله، ﷺ، أكثر ممن سبقني منهم، . فما رأيت قوما أي: سر سيرة ولا أقل تشدداً منهم»[5]. وكان عمر بن الخطاب ﷺ، يسير مع صاحب له فسقط على صاحبه شيء من ميزاب، فقال الرجل: «يا صاحب الميزاب، أماؤك طاهر أو نجس؟ فقال عمر: يا صاحب الميزاب، لا

(١) البيهقي في سننه الكبرى ٣٢٢/٨.
(٢) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الجامع، باب الرفق بالمملوك رقم٣٥٩٤، ١٤٢٨/٥.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب صفة الرسول ﷺ، رقم: ٣٣٦٧، ١٣٠٦/٣. ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل باب مباعدته ﷺ للآثام رقم: ٦١٩٠، ٨٠/٧.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب رقم: ٢٨٧٣، ١١٠٤/٣.
(٥) أخرجه الدارمي في سننه، كتاب المقدمة، باب كراهية الفتيا، رقم ١٢٦، ٦٣/١،

تخبرنا»[1]. واعتمر يحيى بن عبدالرحمن بن حاطب مع عمر بن الخطاب في ركب فيهم عمرو بن العاص وأن عمر عرس في بعض الطريق قريباً من المياه، فاحتلم فاستيقظ وقد كاد أن يصبح، فركب وكان الرفع حتى جاء الماء فجلس على الماء يغسل ما رأى من الاحتلام حتى أسفر، فقال عمرو أصبحت ومعنا ثياب البِسْهَا ودَعْ ثوبك يغسل، فقال عمر: واعجباً لك يا عمرو، لئن كنت تجد الثياب، أفكل الناس يجدون الثياب، فوالله لو فعلت لكانت سنة، لا بل أغسل ما رأيت وأنضح ما لم أر»[2].

٣-٥. قيمة الوسطية

الوسطية خاصية من خصائص الإسلام، وهي من سمات هذه الأمة، كما وصفها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة:١٤٣]، وقد كان الرسول ﷺ، يعلم أصحابه أن الإسلام دين الوسطية والاعتدال، فقال: «وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة»[3]. وكان يستغل كل فرص سانحة ليغرس هذه القيمة العظيمة في نفوسهم، ومن ذلك أن النبي ﷺ، آخى بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء متبذلة، فقال لها: « ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء، ليس له حاجة في الدنيا. فجاء أبو الدرداء، فصنع له طعاماً فقال: كل. قال: فإني صائم، قال: ما أنا بآكل حتى تأكل، قال: فأكل، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم قال: نم، فنام ثم ذهب يقوم فقال: نم، فلما كان من آخر الليل قال سلمان: قم الآن، فصليا، فقال له سلمان: إن لربك عليك حقاً ولنفسك عليك حقاً ولأهلك عليك حقا فأعط كل ذي

(١) ابن القيم في إغاثة اللهفان ١/١٥٤،
(٢) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الطهارة، باب إعادة الجنب الصلاة رقم ١٥٧ ٢/٦٨. والطحاوي في شرح معاني الآثار ١/٥٢ وعبدالرزاق في المصنف ١/٣٦٩. من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن يحيى بن عبدالرحمن بن حاطب.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدين يسر، رقم: ٣٩، ١/٢٣،

حق حقه، فأتى النبي ﷺ، فذكر ذلك له فقال النبي ﷺ: صدق سلمان»[١].

وقد طبق الصحابة بعد وفاة الرسول ﷺ، هذه القيم تطبيقاً عملياً لما تعلموه من رسولهم ﷺ؛ بل كانوا يأمرون بها بعضهم بعضاً. ومن الأمثلة على وسطية الصحابة، أن ابن عمر مر برجل يكيل كيلاً كأنه يعتدي فيه، فقال له: «ويحك ما هذا؟ فقال له: أمر الله بالوفاء، قال ابن عمر: ونهى عن العدوان»[٢]. وعن الأزرق بن قيس قال: «كنا بالأهواز نقاتل الحرورية، فبينا أنا على جرف نهر إذا رجل يصلي وإذا لجام دابته بيده، فجعلت الدابة تنازعه وجعل يتبعها، قال شعبة: هو أبو برزة الأسلمي، فجعل رجل من الخوارج يقول: اللهم افعل بهذا الشيخ، فلما انصرف الشيخ قال: إني سمعت قولكم وإني غزوت مع رسول الله ﷺ، ست غزوات أو سبع غزوات وثمان، وشهدت تيسيره وإني إن كنت أن أراجع مع دابتي أحب إلي من أن أدعها ترجع إلى مألفها فيشق علي»[٣]. والأمثلة على ذلك كثيرة في حياة كل صحابي، حتى عرف عصرهم عند من جاء بعدهم بعصر الوسطية والاعتدال، وصاروا المثل الأعلى للأمة الإسلامية في تطبيق هذه القيمة السامية، وكتب عمر بن عبدالعزيز إلى أحد عماله فقال: بعد أن أوصاه بلزوم طريق الصحابة الكرام: «.. ما دونهم من مقصر وما فوقهم من محسر، لقد قصر دونهم أقوام فجفوا، وطمح عنهم أقوام فغلوا، إنهم بين ذلك لعلى هدى مستقيم»[٤].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع رقم: ١٨٦٧، ٢/٦٩٤.
(٢) عبدالرزاق في المصنف ٨/٦٧.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أبواب العمل في الصلاة، باب إذا انفلتت الدابة في الصلاة، رقم: ١١٥٣، ١/٤٠٥،
(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب لزوم السنة رقم: ٤٦١٤، ٤/٣٣٢.

المحور الثاني
التطبيقات العملية لقيم الرحمة من خلال سيرة الصحابة

بعث الله عز وجل رسوله محمداً ﷺ، رحمة للعالمين، واختار له أصحاباً ينصرونه ويعزرونه، آمنوا به واتبعوا الدين الذي جاء به، فتخلقوا بأخلاقه، وتمثلوا شمائله، فعاشوا بعده على قيم الرحمة التي أسسوا عليها مجتمعهم، وأكملوا مسيرة بنائه التي بدأها الرسول، صلى الله عله وسلم، حتى أصبحوا بحق مجتمع الأخوة والمحبة والأخلاق، فيرحمون الصغير والكبير والمرأة والرجل والمسلم وغير المسلم، وسنواصل في هذا المحور إن شاء الله تعإلى ، بإبراز بعض الأمثلة والنماذج لتطبيقات الصحابة لخلق الرحمة، سواء فيما بينهم أو فيما بينهم وبين غير المسلمين، لنبين بذلك كيف كان الصحابة يجمعون بين صفات الشدة في مجابهة الأعداء والرحمة في معاملة المسلمين وغيرهم من أهل الذمة، مصداقاً لقول المولى عز وجل: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:٢٩].

١. رحمة الصحابة بعضهم بعضاً.

تشمل رحمة الصحابة رضي الله عنهم، حياتهم بتفاصيلها وبكل جزء من أجزائها، فقد كانوا رحماء بالجميع، الصغير واليتيم والفقير والضعيف والمرأة العجوز والمخطئ والمذنب حتى شملت الحيوان والجماد، وفيما يلي نماذج لتطبيقات الرحمة فيما بين الصحابة رضي الله عنهم:

١-١. الرحمة بالصغير

نشأ الصحابة ﷺ، في مجتمع مسلم يقوده الرسول ﷺ، الذي كان أرحم الناس بالأطفال، قال أنس بن مالك: «ما رأيت أحداً كان أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ»[١]. وقد تأثروا بهذه التربية النبوية وتأسوا بها واقتدوا بمنهجها، فكانت هذه الصفحات المشرقة التي تمتلئ بها كتب الرجال عن رأفة ورحمة الصحابة بالأطفال بجميع أصنافهم؛ وسنرى فيما يأتي نماذج لرحمتهم بالصغير والرضيع واليتيم:

أ. رحمتهم بالرضيع

بلغ من رحمة الصحابة ﷺ، أنها تشمل كل حياتهم ومعاملاتهم ولا يستثنون من ذلك أحداً، حتى شملت رحمتهم الطفل الرضيع في أحضان أمه الحنون، فهذا عمر بن الخطاب يغير حكماً عاماً من أحكام الدولة الإسلامية لمجرد اطلاعه على أحوال الرضع؛ فعن ابن عمر ﷺ، قال: « قدمت رفقة من التجار فنزلوا المصلى، فقال عمر لعبدالرحمن ﷺ: هل لك أن تحرسهم الليلة من الشرق، فباتا يحرسانهم ويصليان ما كتب الله تعالى لهما، فسمع عمر بكاء صبي فتوجه نحوه فقال لأمه: اتقي الله وأحسني إلى صبيك. ثم عاد إلى مكانه فسمع بكاءه فعاد إلى أمه فقال لها: مثل ذلك، ثم عاد إلى مكانه، فلما كان من آخر الليل سمع بكاءه فأتى أمه فقال: ويحك إني لأراك أم سوء، مالي أرى ابنك لا يقر منذ الليلة؟ قالت: يا عبدالله قد أبرمتني هذه الليلة، إني أريغه[٢] على الفطام فيأبى، قال: ولم؟ قالت: لأن عمر لا يفرض إلا للفطيم. قال: وكم له؟ قالت:

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب رحمته الصبيان رقم ٦١٦٨ ٧٦/٧.
(٢) أريغه على الفطام: أي: أديره عليه وأريده منه. يقال: فلان يريغني على أمر وعن أمر: أي: يراودني ويطلبه مني (النهاية في غريب الحديث لابن الأثير باب: الراء ع الواو).

كذا وكذا شهرا قال: ويحك لا تعجليه. فصلى الفجر وما يستبين الناس قراءته من غلبة البكاء، فلما سلم قال: يا بؤسى لعمر كم قتل من أولاد المسلمين، ثم أمر منادياً ينادي أن لا تعجلوا صبيانكم عن الفطام، فإنا نفرض لكل مولود في الإسلام»[1]، فهذه هي التربية النبوية الصحيحة التي أخذوها عن نبيهم الكريم، الذي تعلموا منه أنه خفف من صلاته لسماعه لبكاء طفل رضيع في بيت أمه، في مشهد لا نظير له في سير كل عظماء التاريخ.

ب. رحمتهم بالطفل الصغير

ومن رحمة الصحابة ﷺ، رأفتهم ورحمتهم بالطفل الصغير، ومعاملته بتودد وعطف وحنان، ومن ذلك: أن عمر بن الخطاب، وهو أمير المؤمنين، رآه عيينة بن حصن يومًا يقبل أحد أبنائه، وقد وضعه في حجره وهو يحنو عليه، فقال عيينة: « أتقبل وأنت أمير المؤمنين؟ لو كنت أمير المؤمنين ما قبلت لي ولًدا. فقال عمر: الله، الله حتى استحلفه ثلاثًا، فقال عمر: فما أصنع إن كان الله نزع الرحمة من قلبك؟ إن الله إنما يرحم من عباده الرحماء»[2].

كما أنه ﷺ، رد ولاية رجل من عماله لعدم رحمته بالأطفال، فقد استعمل عمر ﷺ رجلًا من بني أسد على عمل، فدخل ليسلم على عمر ﷺ، فأتي عمر ببعض ولده، فقبله، فقال الأسدي: «أتقبل هذا يا أمير المؤمنين؟ فوالله ما قبلت ولدًا لي قط، فقال عمر: فأنت والله بالناس أقل رحمة، هات عهدنا لا تعمل لي عملاً أبدا»[3]، فرد عهده.

(١) محمد بن سعد في الطبقات الكبرى (٣٠١/٣)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٥٥/٤٤).
(٢) عبدالرزاق في مصنفه ٢٩٩/١١. من طريق معمر بن عاصم عن أبي عثمان النهدي
(٣) هناد الكوفي في الزهد ٦١٩/٢، والبيهقي في سننه الكبرى ٤١/٩ من طريق أبي معاوية عن عاصم الأحول عن أبي عثمان،

ومن رحمة نساء الصحابة بالأبناء؛ قول عائشة ﵂: «جاءتني مسكينة تحمل ابنتين لها، فأطعمتها ثلاث تمرات، فأعطت كل واحدة منهما تمرة، ورفعت إلى فيها تمرة لتأكلها، فاستطعمتها ابنتاها، فشقت التمرة، التي كانت تريد أن تأكلها بينهما، فأعجبني شأنها، فذكرت الذي صنعت لرسول الله ﷺ، فقال: إنَّ الله قد أوجب لها بها الجنة، أو أعتقها بها من النار»[1].

ج. رحمتهم باليتيم

علم الرسول ﷺ، أصحابه ضرورة التكفل باليتيم ورحمته والعطف عليه، وقرن كافل اليتيم بنفسه ﷺ، فقال ﷺ: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا، وأشار بالسبابة والوسطى، وفرّج بينهما شيئًا»[2]. فدأب الصحابة ﵃، على منهجه واتبعوا طريقه فاعتنوا باليتامى أي: ما اعتناء، حتى عرف عن أبي برزة أنه كانت له جفنة من ثريد غدوة وجفنة عشية للأرامل واليتامى والمساكين[3]. ومن الرحمة باليتيم الإحسان إليه بإكرامه وإطعامه، بل والمسح على رأسه والدعاء له، فعن عبداللّه بن أبي أوفى، رضي اللّه عنه، قال: «كنا جلوسًا عند رسول الله ﷺ، فأتاه غلام معه أضت له، فقال: يا رسول الله، يتيم وله أم أرملة وأخت يتيمة، أطعمنا أطعمك الله، أعطاك الله من عنده حتى ترضى، قال: ما أحسن ما قلت يا غلام، يا بلال، إذهب إلى أهلنا فأتنا بما وجدت عندهم من طعام، فذهب فجاء بواحدة وعشرين تمرة، فوضعها في كف رسول الله ﷺ، فرفعها رسول الله ﷺ إلى فيه، فدعا فيها بالبركة ثم قال: يا غلام، سبع لك وسبع لأمك وسبع

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والأدب، باب فضل الإحسان إلى البنات رقم ٦٨٦٣، ٣٨/٨.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطلاق، باب اللعان رقم ٤٩٩٨، ٢٠٣٢/٥.
(٣) ابن سعد في الطبقات الكبرى ٢٩٩/٤.

لأختك، فتغدى بتمرة وتعش بأخرى، فانصرف الغلام، فقام إليه معاذ ابن جبل فوضع يده على رأسه وقال: يا غلام جبر الله يتمك وجعلك خلفاً من أبيك، وكان من أولاد المهاجرين، فقال له رسول الله ﷺ: قد رأيت يا معاذ ما صنعت فقال: رحمة له يا رسول الله»[1].

كما كان الرسول ﷺ، ينهى عن الإساءة لليتيم، ويعد من يحسن إليه بالجنة، قال الزهري: «أخبرني كعب بن مالك قال: أول أمر عتب على أبي لبابة أنه كان بينه وبين يتيم عذق، فاختصما إلى النبي ﷺ، فقضى النبي ﷺ لأبي لبابة، فبكى اليتيم، فقال النبي ﷺ: «دعه له»، فأبى، قال: «فأعطه إياه ولك مثله في الجنة»، فأبى فانطلق ابن الدحداحة فقال لأبي لبابة: بعني العذق بحديقتين. قال: نعم. ثم انطلق إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أرأيت إن أعطيت هذا اليتيم هذا العذق، ألي مثله في الجنة ؟ قال: «نعم، فأعطاه إياه»، قال: فكان النبي ﷺ يقول: «كم من عذق دواح لأبي الدحداح في الجنة، مرارا»[2].

١-٢. الرحمة بأصحاب المعاصي والذنوب

إن القارئ لسير الصحابة ﷺ، والدارس لها ليقف متعجباً من قمة الرحمة التي تشبع بها أصحاب رسول الله، وعظم ما غرسه الرسول في نفوسهم من التطبيق العملي الرائع للرحمة في معاملة جميع الناس دون استثناء، حتى

(١) الحارث الهيثمي في مسنده ٨٥٢/٢. وأبو نعيم في معرفة الصحابة ٢٧٠/١١ من طريق يزيد يعني ابن هارون ثنا فايد بن عبدالرحمن عن عبدالله بن أبي أوفى

(٢) أخرجه عبدالرزاق في المصنف ٤٠٦/٥. من طريق معمر عن الزهري عن كعب بن مالك. قال الإمام الإلباني في السلسة الصحيحة ٤٦٣/٦ رقم: ٢٩٦٤: كعب بن مالك صحابي معروف ولم يدركه الزهري، ولذلك قال الشيخ الأعظمي ﷺ في التعليق عليه: ولعل الصواب: عبدالرحمن ابن كعب بن مالك. أي: فهو مرسل أي: أيضاً. والله أعلم. أما قوله ﷺ: كم من عذق دواح لأبي الدحداح في الجنة، مراراً. قال فيه الهيثمي (٩ / ٣٢٤): رواه أحمد والطبراني، ورجالهما رجال الصحيح.

شملت رحمته المذنبين وأصحاب المعاصي، ومن أمثلة ذلك ما رواه أنس بن مالك ﷺ، فقال: «بعثني أبو موسى بفتح تستر إلى عمر ﷺ، فسألني عمر فقال: ما فعل النفر من بكر بن وائل؟ وكان ستة نفر من بكر بن وائل قد ارتدوا عن الإسلام، ولحقوا بالمشركين، فأخذت في حديث آخر لأشغله، فقال: ما فعل النفر من بكر بن وائل؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، قوم ارتدوا عن الإسلام، ولحقوا بالمشركين، ما سبيلهم إلا القتل، فقال عمر: لأن أكون أخذتهم سلمًا أحب إلي مما طلعت عليه الشمس من صفراء أو بيضاء، قال: قلت: يا أمير المؤمنين، وما كنت صانعًا بهم لو أخذتهم، قال: كنت عارضًا عليهم الباب الذي خرجوا منه أن يدخلوا فيه، فإن فعلوا ذلك قبلت منهم، وإلا استودعتهم السجن»[1]. فرحمته ﷺ لم تكتف بالمسلمين دون غيرهم، بل امتدت إلى المرتدين عن دينهم، فمن رحمته بهم كان يحب أن يدخلوا إلى الإسلام بدل ان يعاقبهم على تنكرهم لدينهم.

ومن رحمتهم ﷺ ، ما رواه ابن عمر ﷺ حيث قال: «كنت مع عمر بن الخطاب ﷺ، في حج أو عمرة، فإذا نحن براكب، فقال عمر ﷺ: أرى هذا يطلبنا، فجاء الرجل، فبكى فقال عمر: ما شأنك؟ إن كنت غارمًا أعناك، وإن كنت خائفًا أمناك، إلا أن تكون قتلت نفسًا، فتقتل بها، وإن كنت كرهت جوار قوم حولناك عنهم، قال: إني شربت الخمر، وأنا أحد بني تميم، وإن أبا موسى جلدني، وحلقني، وسود وجهي، وطاف بي في الناس، وقال: لا تجالسوه ولا تؤاكلوه، فحدثت نفسي بإحدى ثلاث، إما أن اتخذ سيفًا فأضرب به أبا موسى، وإما أن آتيك فتحولني إلى الشام فإنهم لا يعرفوني، وإما أن ألحق بالعدو، وآكل معهم وأشرب، فبكى عمر ﷺ وقال: ما يسرني أنك فعلت وإن لعمر كذا وكذا، وإني كنت لأشرب الناس

(١) أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار ٣/٢١٠، وعبدالرزاق في المصنف ١٠/١٦٥.. من طريق داود بن أبي هند عن الشعبي عن أنس. وابن أبي شيبة في المصنف ٦/٤٣٨ من طريق داود بن أبي هند عن عامر عن انس.

لها في الجاهلية، وإنها ليست كالزنى، وكتب إلى أبي موسى: سلام عليك أما بعد، فإن فلان بن فلان التميمي أخبرني بكذا وكذا، وأي: م الله لئن عدت لأسودن وجهك، ولأطوفن بك في الناس، فإن أردت أن تعلم صدق ما أقول لك فعد. وأمر الناس أن يجالسوه ويؤاكلوه، وإن تاب قبلت شهادته، وحمله وأعطاه مائتي درهم»[1]. فالعدل يقتضي عقاب شارب الخمر، لكن الرحمة تقتضي التريث والنظر، إلى الأمور من جهات عدة حتى تتضح ملابساته وحيثياته فيصير الحكم صحيحاً لا ظلم فيه ولا اعتداء.

ولم يتوقف شمول رحمة الصحابة ﷺ، لأصحاب المعاصي بل شملت المذنبين في حقهم، فكثيراً ما نجد في سيرهم رحمتهم وعفوهم عمن أساء إليهم واعتدى عليهم، فعن عمران بن عبدالله بن طلحة: أن عثمان بن عفان ﷺ، خرج لصلاة الغداة، فدخل من الباب الذي كان يدخل منه، فزحمه الباب فقال: « انظروا، فنظروا فإذا رجل معه خنجر أو سيف، فقال له عثمان ﷺ: ما هذا؟ قال: أردت أن أقتلك، قال: سبحان الله!! ويحك، علام تقتلني؟ قال: ظلمني عاملك باليمن، قال: أفلا رفعت ظلامتك إليَّ فإن لم أنصفك أو أعديك على عاملي أردت ذلك مني؟ فقال لمن حوله: ما تقولون؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين، عدو أمكنك الله منه، فقال: عبد همَّ بذنب فكفه الله عني، ائتني بمن يكفل بك، لا تدخل المدينة ما وليت أمر المسلمين، فأتاه برجل من قومه فكفل به فخلى عنه»[2]. فمن رحمته ﷺ عفى على من كان جاء لقتله فرد الإساءة بالإحسان.

١-٣. الرحمة بالمرأة

كان الصحابة ﷺ، يقدرون المرأة ويظهرون رحمتهم بها في كل المواقف

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٢١٤/١٠. قال: أخبرنا أبو الحسن بن الفضل القطان أنبأنا أبو سهل بن زياد القطان ثنا إسحاق بن الحسن الحربي ثنا عفان ابن مسلم ثنا حماد بن سلمة ثنا سماك بن حرب عن عبدالله بن شداد بن الهاد عن ابن عمر، ورجال السند ثقات سوى أبي سهل فهو صدوق.

(٢) ابن شبة في تاريخ المدينة المنورة ١٨٨/٢.

عملاً بتوجيهات نبيهم ومعلمهم ﷺ، الذي كان دائم الوصية بالنساء، فكان يقول لهم: استوصوا بالنساء خيراً. وفيما يأتي نماذج لرحمة الصحابة للمرأة العجوز والأرملة والفقيرة.

أ. رحمتهم بالمرأة العجوز

روى الأوزاعي أن عمر خرج في سواد الليل فرآه طلحة فذهب عمر فدخل بيتاً ثم دخل بيتً آخر، فلما أصبح طلحة ذهب إلى ذلك البيت، فإذا بعجوز عمياء مقعدة، فقال لها: «ما بال هذا الرجل يأتيك؟ قالت: إنه يتعاهدني منذ كذا وكذا، يأتيني بما يصلحني ويخرج عني الأذى، فقال طلحة: ثكلتك أمك يا طلحة، أعثرات عمر تتبع»؟[1].

ب. رحمتهم بالأرملة

رفع الرسول ﷺ، من شأن من يرعى شؤون الأرملة إلى مرتبة الجهاد في سبيل الله فقال ﷺ: «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله»[2]. ولذلك كان الصحابة يسارعون إلى اغتنام هذه الفرصة الكبيرة والمنزلة العظيمة، فكانوا يهتمون بشؤون الأرامل أي: ما اهتمام، فروى زيد بن أسلم عن أبيه قال: خرجت مع عمر رضي الله عنه، إلى السوق، فلحقته امرأة شابة فقالت: «يا أمير المؤمنين هلك زوجي وترك صبية صغاراً والله ما ينضجون كراعاً[3]، ولا لهم زرع ولا ضرع، وخشيت عليهم الضياع، وأنا ابنة خفاف بن أي: من الغفاري، وقد شهد أبي الحديبية مع رسول الله ﷺ، فوقف معها عمر ولم يمض، وقال: مرحباً بنسب قريب، ثم انصرف إلى بعير

(١) أبو نعيم في حلية الأولياء ٤٨/١. من طريق محمد بن معمر عن يحيى بن عبدالله عن الأوزاعي.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النفقات، باب فضل النفقة على الأهل رقم ٥٠٣٨، ٢٠٤٧/٥. ومسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم رقم ٧٦٥٩، ٢٢١/٨.
(٣) ينضجون كراعاً: الكراع من الدواب ما دون الكعب، والمقصود ما يطبخون كراعاً لعجزهم وصغرهم يعني لا يكفون أنفسهم خدمة ما يأكلونه فكيف غيره ؟ (لسان العرب لابن منظور مادتي: كرع، ونضج).

ظهير[1] كان مربوطاً في الدار، فجعل عليه غرارتين ملأهما طعاماً وجعل بينهما نفقة وثياباً ثم ناولها خطامه فقال: اقتاديه، فلن يفنى هذا حتى يأتيكم الله بخير. فقال رجل: أكثرت لها يا أمير المؤمنين فقال: ثكلتك أمك، والله إني لأرى أبا هذه وأخاها قد حاصرا حصناً زماناً فافتتحناه، ثم أصبحنا نستفيء سهمانهما»[2]

ج. رحمتهم بالمرأة الفقيرة

من سمات المجتمع الحضاري أن التآزر والتعاون والتراحم يكون بين مختلف فئاته وطبقاته، وقد شبه الرسول ﷺ، المجتمع الإسلامي المؤمن، بأعضاء الجسد الواحد فقال: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[3]. فأعضاء المجتمع المسلم يرحم بعضهم بعضا ويعطف بعضهم على بعضٍ. واذا اشتكى أحدهم من مشكل ألم به، أو مصيبة أصابته تداعى له كل أفراد المجتمع، ومن أمثلة هذا التآزر والتراحم في عهد الصحابة رضي الله عنهم، رحمتهم لامرأة فقيرة لا تملك قوت أبنائها الذين ألمَّ بهم الجوع ولم يجدوا شيئاً يعيشون به، فروى أسلم قال: «خرجت ليلة مع عمر إلى حرة واقم، حتى إذا كنا بصرار إذا بنار فقال: يا أسلم ههنا ركب قد قصر بهم الليل، انطلق بنا إليهم، فأتيناهم فإذا امرأة معها صبيان لها، وقدر منصوبة على النار وصبيانها يتضاغون، فقال عمر: السلام عليكم يا أصحاب الضوء، قالت: وعليك السلام. قال: أدنو؟. قالت: ادن أو دع. فدنا فقال: ما بالكم ؟ قالت: قصر بنا

(١) بعير ظهير: يعني شديد الظهر قوياً على الرحلة (النهاية في غريب الحديث لابن الأثير، باب الظاء مع الهاء).
(٢) أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، رقم ٣٩٢٨.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والأدب باب تراحم المؤمنين، تعاطفهم وتعاضدهم رقم ٦٧٥١. ٢٠/٨.

الليل والبرد. قال: فما بال هؤلاء الصبية يتضاغون؟ قالت: من الجوع. فقال: وأي: شيء على النار؟ قالت: ماء أعللهم به حتى يناموا، الله بيننا وبين عمر. فبكى عمر ورجع يهرول إلى دار الدقيق فأخرج عدلاً من دقيق وجراب شحم، وقال: يا أسلم إحمله على ظهري، فقلت: أنا إحمله عنك. فقال: أنت تحمل وزري يوم القيامة ؟. فحمله على ظهره وانطلقنا إلى المرأة فألقى عن ظهره وأخرج من الدقيق في القدر، وألقى عليه من الشحم، وجعل ينفخ تحت القدر والدخان يتخلل لحيته ساعة، ثم أنزلها عن النار وقال: إيتيني بصحفة. فأتى بها فغرفها ثم تركها بين يدي الصبيان وقال: كلوا، فأكلوا حتى شبعوا، والمرأة تدعو له وهي لا تعرفه، فلم يزل عندهم حتى نام الصغار، ثم أوصلهم بنفقة وانصرف، ثم أقبل علي فقال: يا أسلم الجوع الذي أسهرهم وأبكاهم فأحببت أن لا أنصرف حتى أرى ما رأيت»[1].

وروى حزام بن هشام عن أبيه قال: «رأيت عمر بن الخطاب عام الرمادة مر على امرأة وهي تعصد عصيدة لها فقال: ليس هكذا تعصدين ثم أخذ المسوط فقال هكذا»[2].

١-٤. الرحمة بالرعية

أمر الإسلام ولاة أمر المسلمين باستشعار ثقل المسؤولية التي يتحملونها، وكان الرسول ﷺ، يحظ من ولي من أصحابه أمر المسلمين برحمتهم والرفق بهم فيقول: اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فاشقق

(١) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة ٢٩٠/١ والطبري في تاريخ الرسل والملوك ٥٦٧/٢ ، وابن عساكر في تاريخ دمشق، من طرق عن عبد الله بن مصعب عن ربيعة بن عثمان الهديري عن زيد بن أسلم عن أبيه. وعبد الله بن مصعب الزبيري، لينه ابن معين، وقال أبو حاتم: شيخ بابهعبد الرحمن بن أبي الزناد الجرح والتعديل ٢٥٢/٥.

(٢) ابن سعد في الطبقات الكبرى ٣١٤/٣. من طريق محمد بن عمر الواقدي عن حِزام بن هشام عن أبيه.

عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئا فرفق بهم فارفق به[1]. ولا تقف هذه المسؤولية عند ولاة الأمر فقط، بل تتعداه إلى جميع أفراد المجتمع، كما ورد عن الرسول ﷺ، أنه قال: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»[2]. فالرسول يوصي الأمة كلها بتحمل مسؤولية بعضهم البعض، ومما روي في عهد الصحابة من الرحمة بالرعية؛ قول نافع مولى الزبير: «سمعت أبا هريرة يقول: يرحم الله ابن حنتمة، لقد رأيته عام الرمادة وإنه ليحمل على ظهره جرابين وعكة زيت في يده وإنه ليعتقب هو وأسلم، فلما رآني قال: من أي: ن يا أبا هريرة؟ قلت: قريباً، قال: فأخذت أعقبه فحملناه حتى انتهينا إلى صرار، فإذا صرم نحو من عشرين بيتا من محارب فقال عمر ما أقدمكم؟ قالوا: الجهد قال: فأخرجوا لنا جلد الميتة مشوياً كانوا يأكلونه ورمة العظام مسحوقة كانوا يسفونها، فرأيت عمر طرح رداءه ثم اتزر فما زال يطبخ لهم حتى شبعوا، وأرسل أسلم إلى المدينة فجاء بأبعرة فحملهم عليها حتى أنزلهم الجبانة ثم كساهم، وكان يختلف إليهم وإلى غيرهم حتى رفع الله ذلك»[3].

فاستشعار المسؤولية تجاه الرعية لا تتوقف عند العطايا أو المأكل والمشرب، بل تتعداه إلى خدمة من يحتاج إليها وتوفير كل الشروط لهم، ثم السؤال عنهم حتى يتأكد من زوال محنتهم. وبذلك يسطرون أروع الأمثلة في التراحم بين أفراد المجتمع الواحد التي يتحول فيها الأمير إلى خادم لرعيته وخاصة الضعفاء منهم والمحتاجين، مما لا نجد مثاله في كل التاريخ الانساني.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الامارة باب فضيلة الامام العادل وعقوبة الجائر رقم ٤٨٢٦. ٧/٦.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح باب قوا أنفسكم وأهليكم نارا، رقم ٤٨٩٢، ١٩٨٨/٥.
(٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى ٣١٤/٣. من طريق: محمد بن عمر عن أسامة بن زيد عن نافع مولى الزبير عن أبي هريرة. وأخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٣٤٧/٤٤. من طريق ابن سعد.

١-٥. الرحمة بالحيوان

تمثل الصحابة توجيهات النبي ﷺ، في الرفق بالحيوان، وذلك بأن تعطى حقها من الطعام والأكل، وألا تحمل أكثر من طاقتها، فيقول ﷺ: «دخلت امرأة النار في هرة حبستها فلا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض»[١]. وعد الرفق بالحيوان وإحسان معاملته من أسباب المغفرة؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ، قال: «بينما رجل يمشي بطريق، اشتد عليه العطش فوجد بئرًا فنزل فيها فشرب ثم خرج، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ بي، فنزل البئر فملأ خفه ثم أمسكه بفيه، فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له[٢].

وقد شملت رحمة الصحابة رضي الله عنهم، الحيوان كما الإنسان، فكانوا يتقون الله فيها ويخافون أن يسألوا عن سوء معاملتها وعدم الرفق بها، ومن ذلك القول الشهير لعمر رضي الله عنه، حين قال: «لو ماتت سخلة على شاطئ الفرات ضيعة لخفت أن أسأل عنها»[٣]. ومن ذلك أن عمر بن الخطاب اشتهى الحوت يومًا، فقال: «لقد خطر على قلبي شهوة الطري من حيتان، فخرج يرفأ، في طلب الحوت لعمر رضي الله عنه، ورحل راحلته، فسار ليلتين مدبرًا، وليلتين مقبلًا، واشترى مكتلاً[٤]، وجاء بالحوت، ثم غسل يرفأ الدابة، فنظر إليها عمر فرأى عرقًا تحت أذنها، فقال: عذبت بهيمة من البهائم في شهوة

(١) أخرجه البخاري في صحصحه، كتاب بدء الخلق، باب خمس من الدواب فواسق يقتلن في الحرم رقم: ٣١١٠، ١٢٠٥/٣. ومسلم في صحصحه كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله رقم: ٧١٥٨، ٩٨/٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم باب الآبار على الطرق إذا لم يتأذ بها رقم: ٢٣٣٤، ٨٧٠/٢. ومسلم في صحيحه، كتاب السلام باب فضل ساقي البهائم المحترمة وإطعامها، رقم: ٥٩٦٦، ٤٤/٧.

(٣) انظر البيهقي في شعب الإيمان ٣١/٦، وأبو نعيم في حلية الاولياء ١٣٧/٦.

(٤) المِكْتَل: الزنبيل الكبير، قيل إنه يسع خمسة عشر صاعًا. ابن الأثير النهاية في غريب الحديث، باب الميم مع الكاف.

عمر، لا والله لا يذوقه عمر، عليك بمكتلك»[1]. فقد امتنع عن الأكل الذي كان يشتهيه لما رأى من عذاب الدابة في سبيل إحضار ما كان يشتهيه، وإحساسه أنه قد حملها فوق طاقتها، فعاقب نفسه وشهوته حتى لا يعود لمثل ذلك الأمر رحمة بتلك الدابة.

٢. رحمة الصحابة بغير المسلمين

تعلم الصحابة ﷺ، من رسول الله ﷺ، أن يتخلقوا بأخلاق الرحمة في كل شؤونهم، ومنها معاملتهم لغير المسلمين، فقد عاشوا مع رسول الله، ورأوا معاملته لهم ورحمته إياهم، خاصة من كان منهم في موقف الضعيف، قال ابن القيم في زاد المعاد: وهبط عليه في صلح الحديبية ثمانون متسلحون يريدون غرته، فأسرهم ثم من عليهم، وأسر ثمامة بن أثال سيد بني حنيفة، فربطه بسارية المسجد، ثم أطلقه فأسلم[2]. ولذلك فإن هذه التربية التي غرسها الرسول في أصحابه سيكون لها الأثر الكبير في نفوسهم ليعملوا بها بعده ﷺ.

٢-١. الرحمة بالأسير

سبق أن نقلنا في مقدمة هذا المبحث قولاً عن رحمة الرسول ﷺ، بغير المسلمين، وخاصة الأسرى منهم، وفي سير الصحابة ﷺ، نجد هذا التطبيق العملي لما عليه كتاب الله وسنة رسول الله في معاملة الأسرى، ومن ذلك ما أثر من أنه لما أسر الهرمزان، ملك الأهواز، وفد أبو سبرة وهو أمير الجيش، أنس بن مالك والأحنف بن قيس وأرسل الهرمزان معهم، حتى إذا دخلوا المدينة... فلما وقف أمام عمر قال عمر ﷺ: «ما عذرك وما حجتك في انتفاضك مرة بعد مرة؟ فقال: أخاف أن تقتلني قبل أن أخبرك قال: لا

(١) احمد في فضائل الصحابة ٣١٩/١ وابن عساكر في تاريخ دمشق ٣٠١/٤٤.
(٢) ابن القيم في زاد المعاد ١١٠/٣.

تخف ذلك، واستسقى ماءً فأتي به في قدح غليظ فقال: لو مت عطشا لم أستطع أن أشرب في مثل هذا، فأتي به في إناء يرضاه فجعلت يده ترعد وقال: إني أخاف أن أقتل وأنا أشرب فقال عمر ﷺ، لا بأس عليك حتى تشربه، فأكفأه فقال عمر ﷺ: أعيدوا عليه ولا تجمعوا عليه القتل والعطش فقال: لا حاجة لي في الماء إنما أردت أن استأمن به فقال عمر ﷺ: إني قاتلك. قال: قد أمنتني، قال: كذبت. قال أنس: صدق يا أمير المؤمنين قد أمنته قال: ويحك يا أنس أنا أؤمن قاتل مجزاة والبراء بن مالك، والله لتأتين بمخرج وإلا عاقبتك. قال: قلتَ له: لا بأس عليك حتى تخبرني، وقلت: لا بأس عليك حتى تشربه، وقال له من حوله مثل ذلك فأقبل على الهرمزان وقال خدعتني والله لا انخدع إلا أن تسلم، فأسلم فعرض له على ألفين وأنزله المدينة»[1]. فرغم أن الأسير هو ملك قومه، ورغم نقضه العهد مع المسلمين أكثر من مرة، فإن ذلك لم يجعل عمر ولا الصحابة الكرام ينتقمون منه، وعلى العكس من ذلك رحموا ضعفه وألبسوه الجيد من اللباس وكفلوا له كل الحقوق، كأنهم يدعونه إلى الإسلام بأخلاقهم، فأسلم وأصبح واحداً من المسلمين.

٢-٢. الرحمة في الجزية

فرض الإسلام الجزية على غير المسلمين، وهي ليست عقوبة لعدم الدخول في الإسلام، بل ضريبة لانتفاع غير المسلمين بالمرافق العامة، وضريبة الدفاع عنهم من أي: اعتداء خارجي، لأن الإسلام دين العدل والرحمة، وفي سير الصحابة ﷺ، يلاحظ القارئ كيف يلتزم الصحابة خلق الرحمة في هذه الفريضة ومن الأمثلة على ذلك:

في خلافة أبي بكر ﷺ، كتب خالد بن الوليد ﷺ، في عقد الذمة لأهل

(١) أخرجه الطبري في تاريخ الرسل والملوك ٥٠٢/٢، وأورده الكلاعي في الاكتفاء ٢٩٤/٤، وابن الأثير في الكامل ٤٤٥/١، وأسد الغابة ٩٧٤/١.

الحيرة بالعراق وكانوا من النصارى: «وجعلت لهم أي: ما شيخ ضعف عن العمل، أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنياً فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه، طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين هو وعياله»[١].

وكتب عمر بن الخطاب في أهل الذمة أن «من لم يطق منهم فخففوا عنه ومن عجز فأعينوه، فإنا لا نريدهم لعام ولا لعامين». وتأكيداً لهذا المبدأ أبصر عمر شيخاً، يسأل، فقال: «مالك؟ فقال: ليس لي مال وأنا تؤخذ مني الجزية، قال: وهو شيخ كبير، فقال عمر: ما أنصفناك إن أكلنا شبيبتك، ثم نأخذ منك الجزية، ثم كتب إلى عماله ألا يأخذوا الجزية من شيخ كبير»[٢]. كما كان ﷺ، دائم السؤال عن أحوال أهل الذمة، فقد قَدِمَ أحد عماله عليه بأموال الجزية، فوجدها عمر كثيرة، فقال لعامله: «إني لأظنكم قد أهلكتم الناس؟ قالوا: لا والله ما أخذنا إلا عفواً صفواً. قال: بلا سوط ولا نوط؟ قالوا: نعم. قال: الحمد لله الذي لم يجعل ذلك على يدي ولا في سلطاني»[٣]. وعندما حضرته الوفاة قال لمن اختارهم للخلافة: «أوصي الخليفة من بعدي بأهل الذمة خيرًا، وأن يوفي لهم بعهدهم، وأن يقاتلوا من ورائهم، وألا يكلفوا فوق طاقتهم»[٤]. فهذه هي الأخلاق الإسلامية التي سطرها القرآن الكريم والسنة النبوية وطبقها الرسول أحسن تطبيق في سيرته العطرة، فسار أصحابه على نهجه القويم حتى أسسوا بذلك أعظم دولة حضارية عرفتها الإنسانية.

٢-٣. الرحمة بفقرائهم ومساكينهم

(١) أبو يوسف في كتاب الخراج صفحة: ١٥٧
(٢) ابن زنجويه في كتاب الأموال ١٦٢/١.
(٣) أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب الأموال صفحة٥٤.
(٤) أخرجه بهذا اللفظ البيهقي في السنن الكبرى ٢٠٦/٩. وزخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز باب ما جاء في قبر النبي ﷺ رقم ١٣٢٨، ٤٦٩/١. بلفظ: وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله ﷺ أن يوفي لهم بعهدهم وأن يقاتل من وراءهم وأن لا يكلفوا فوق طاقتهم.

شملت رحمة الصحابة ﷺ، الفقراء، كل الفقراء دون تمييز بين عرقهم أو دينهم، فقد كانوا يحسنون إلى الفقير حتى وإن كان غير مسلم؛ فقد مر عمر ابن الخطاب ﷺ، بباب قوم وعليه سائل يسأل: «شيخ كبير ضرير البصر، فضرب عضده من خلفه وقال: من أي: أهل الكتاب أنت؟ قال: يهودي، قال: فما ألجأك إلى ما أرى؟ قال: أسأل الجزية والحاجة والسن، قال: فأخذ عمر بيده وذهب به إلى منزله فرضخ له بشيء من المنزل، ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال: انظر هذا وضرباءه فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم، إنما الصدقات للفقراء والمساكين، والفقراء هم المسلمون، وهذا من المساكين من أهل الكتاب، ووضع عنه الجزية وعن ضربائه»[1].

٢-٤. الرحمة بصلة الأرحام منهم

من الرحمة بغير المسلمين صلتهم إذا كانوا من الأرحام، وتعني: الإحسان إلى الأقارب وإسداء الخير لهم، وقد حث الرسول، ﷺ، على صلة الأرحام ولو كانوا غير مسلمين، قالت أسماء ﷺ: «أتتني أمي راغبة في عهد رسول الله، ﷺ، فسألت النبي، ﷺ، أن أصلها؟ قال: نعم. قال ابن عيينة: فأنزل الله تعالى: (لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ)[2].

ومن التطبيقات العملية للرحمة بالأقارب غير المسلمين، ما روي عن ابن عمر ﷺ قال: «رأى عمر حلة سيراء تباع، فقال: يا رسول الله ابتع هذه، والبسها يوم الجمعة، وإذا جاءك الوفود، قال: إنما يلبس هذه من لا خلاق له. فأتي النبي، ﷺ، منها بحلل، فأرسل إلى عمر بحلة، فقال: كيف ألبسها وقد قلت فيها ما قلت؟! قال: إني لم أعطكها لتلبسها، ولكن لتبيعها

(١) أبو يوسف الانصاري في كتاب، الخراج صفحة ١٣٩.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب صلة الوالد المشرك رقم ٥٦٣٣، ٥/ ٢٢٣٠.

أو تكسوها. فأرسل بها عمر إلى أخ له من أهل مكة قبل أن يسلم»[١].

٢-٥. الرحمة بالجار غير المسلم

من رحمة الإسلام أنه لا يترك جانباً من جوانب الحياة الاجتماعية إلا وأمر فيه بالرحمة، ولم يغفل أي: جانب من جوانبها، فقد أمر الرسول بالاعتناء بالجار فقال ﷺ: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»[٢]. قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قلت: وعلى هذا: فالوصية بالجار مأمور بها، مندوب إليها، مسلمًا كان، أو كافرًا، وهو الصحيح»[٣]. وروى أبو شريح أن النبي ﷺ، قال: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، قيل: يا رسول الله ومن ؟ قال: الذي لا يأمن جارُه بوائقَه»[٤]. وعن أنس قال: «كان أحد جيران الرسول من اليهود، وكان الرسول يزوره، وذات مرة وهو في زيارته عرض عليه رسول الله الإسلام فأسلم، فخرج النبي فَرِحًا وهو يقول: الحمد لله الذي أنقذه بي من النار»[٥]. وهذا عام في كل جار. ومن أمثلة رحمة الصحابة للجار غير المسلم؛ أن شاة ذبحت في أهل عبدالله بن عمرو فلما جاء قال: «أهديتم لجارنا اليهودي؟ ثلاث مرات، سمعت رسول الله ﷺ، يقول: ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»[٦]. كان هذا الجار مسلمًا وغير مسلم.

٢-٦. الرحمة برهبانهم

وردت كلمة الرهبان في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب صلة الأخ المشرك رقم: ٥٦٣٦، ٥/٢٢٣٠.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب الوصاة بالجار رقم: ٥٦٦٩، ٥/٢٢٣٩. ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والادب باب، الوصية بالجار والإحسان إليه رقم: ٦٨٥٤، ٨/٣٧.
(٣) القرطبي في تفسيره ٥/١٨٤.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب من لا يأمن جاره بوائقه رقم: ٥٦٧٠، ٥/٢٢٤٠.
(٥) أخرجه أحمد في مسنده ٢١/٧٨، وأبو داود في سننه كتاب الجنائز باب في عيادة الذمي رقم: ٣٠٩٧، ٣/١٥٢، والنسائي في سننه، كتاب السير، باب عرض الإسلام على المشرك رقم: ٨٥٨٨. ٥/١٧٣.
(٦) القرطبي في تفسيره ٥/١٨٨.

﴿بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾ [المائدة:٨٢] وراهب الكنيسة هو المتعبد المنعزل عن المجتمع، ومن صفتهم التقشف والاستغراق في العبادة، وقد كان الرسول ﷺ، ينهى أصحابه عن قتل كل من لم يشارك في الحرب من النساء والصبيان والشيوخ ونحوهم، ومن رحمة الصحابة رضي الله عنهم بهذه الفئة من غير المسلمين أن أبا بكر رضي الله عنه يوصي الجيوش الإسلامية بقوله: «وستمرون على قوم في الصوامع رهباناً يزعمون أنهم ترهبوا في الله فدعوهم ولا تهدموا صوامعهم»(١).

ومن رحمتهم بالرهبان في غير الحرب أن عمر رضي الله عنه، مر براهب فوقف ونودي بالراهب فقيل له: «هذا أمير المؤمنين، فاطَّلَع فإذا إنسان به من الضر والاجتهاد وترْكِ الدنيا، فلمَّا رآه عمر؛ بكى، فقيل له: إنَّه نصراني، فقال عمر: قد علمت، ولكني رحمته، ذكرت قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤﴾ [الغاشية] رحمتُ نصبَه واجتهاده وهو في النَّار»(٢).

(١) الواقدي في فتوح الشام ٨/١، وسعيد بن منصور في سننه ٣٩٨/٥.
(٢) عبدالرزاق في تفسيره ٨٠/٨.

الخاتمة

وفي الختام نقول: إن ما قدمناه من نماذج لتطبيقات الصحابة لقيم الرحمة، ما هي إلا قطرة في بحر من سيرة الصحابة، فلا يستطيع الباحث أن يلم بها في بحث أو أكثر، لأن سيرة كل صحابي تمثل مدرسة إسلامية في التربية على خلق الرحمة، وسيجد الدارس لها كل ما يحتاج إليه من مبادئ ونماذج يقتدي بها من يريد أن يصل إلى الفلاح في الدنيا والآخرة، فردا كان أو جماعات، لنصل إلى تلك الثمرة الطيبة التي هي الإنسان المسلم، وبالنتيجة المجتمع الإسلامي الفاضل. ولقد خلصت هذه الدراسة إلى النتائج التالية:

- أن قيمة الرحمة في مجتمع الصحابة قيمة مركزية تنبثق منها مجموعة كبيرة من القيم الفرعية.
- أن الصحابة رضي الله عنهم يلتزمون بقيم الرحمة في كل تجلياتها، ويطبقونها في كل مجالات الحياة.
- سيرة الصحابة تشتمل على عدد كبير من نماذج عملية لتطبيقات الرحمة التي من واجبنا كشفها للاستفادة منها، سواء في مجال التربية بمجتمعاتنا، أو في مجال دعوة غير المسلمين إلى هذا الدين العظيم.

- سيرة كل صحابي من صحابة رسول الله ﷺ، تمثل مدرسة إسلامية في التربية على قيم الرحمة في مجتمعاتنا.

الاهتمام بدراسة قيم الرحمة في سيرة الصحابة تعرف أجيالنا على فترة من حياة جيل شهد فجر انبثاق الإسلام، اصطفاهم لصحبة نبيه ﷺ، ونشر رسالته من بعده فاعتبروا بذلك من خيرة البشر والناس ليكونوا قدوة صالحة للاقتداء بها.

وأختم بحمد الله تعالى على الهداية إلى الكتابة في هذا الموضوع، وأصلي وأسلم على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

فهرس المصادر والمراجع

١. الأدب المفرد، محمد بن إسماعيل البخاري، دار البشائر الإسلامية – بيروت ط٣، ١٤٠٩ – ١٩٨٩.
٢. إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، محمد بن أبي بكر الزرعي تحقيق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة – بيروت ط٢، ١٣٩٥– ١٩٧٥.
٣. الأموال، لابن زنجويه أبو أحمد ابن زنجويه تحقيق: شاكر ذيب فياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، السعودية ط١، ١٤٠٦هـ–١٩٨٦م.
٤. تاريخ الرسل والملوك، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ٣١٠هـ تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢ دار المعارف، مصر.
٥. تاريخ دمشق، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر ت: ٥٧١هـ تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ١٤١٥هـ.
٦. تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، لمحمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر – تونس، ١٩٨٤هـ.
٧. الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، دار الجيل بيروت.
٨. الجامع لأحكام القرآن، أبو عبدالله محمد بن أحمد القرطبي تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة ط٢، ١٣٨٤هـ–١٩٦٤م.

٩. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم أحمد بن عبدالله الأصفهاني ٤٣٠هـ، دار الكتب العلمية بيروت ط١/١٤٠٩هـ-١٩٨٨.
١٠. الخراج، أبو يوسف الأنصاري، تحقيق: طه عبدالرؤوف سعد، سعد حسن محمد المكتبة الأزهرية للتراث.
١١. ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى، محب الدين أحمد بن عبدالله الطبري، مكتبة القدسي عن نسخة: دار الكتب ١٣٥٦هـ.
١٢. سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، لمحمد بن يوسف الصالحي الشامي ٩٤٢هـ، تحقيق: إبراهيم الترزي وعبدالكريم العزباوي ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، لجنة إحياء التراث الإسلامي بوزارة الأوقاف القاهرة.
١٣. سنن أبي داود سليمان بن الأشعة السجستاني ٢٧٥هـ، علق على أحاديثه ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ط٢. ١٤١٧هـ.
١٤. سنن الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
١٥. سنن الدارمي، عبدالله بن عبدالرحمن الدارمي، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، خالد السبع العلمي، دار الكتاب العربي - بيروت ط١، ١٤٠٧هـ.
١٦. السنن الكبرى، لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي ت ٤٥٨هـ، دار المعروفة بيروت. ط١ مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الهند ١٣٥٦هـ.
١٧. سنن سعيد بن منصور، أبو عثمان سعيد بن منصور بن شعبة الخراساني الجوزجاني ت: ٢٢٧ه، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي الطبعة: الأولى، ١٤٠٣هـ-١٩٨٢م الدار السلفية - الهند.

١٨. السيرة النبوية بتهذيب ابن هشام، مراجعة صدقي جميل العطار وسعيد محمد اللحام، ط ٣ دار الفكر ١٤١٩هـ-١٩٩٨.
١٩. شعب الإيمان، لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي ٤٥٨هـ، تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت ط ١/ ١٤٢٤هـ-٢٠٠٠م.
٢٠. صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، لعلاء الدين علي بن بلبان الفارسي ٧٣٩هـ، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة ط ٢ ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.
٢١. صحيح البخاري، لأبي عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري ٢٥٦هـ، ط١٤١٤هـ /١٩٩٤م، دار الفكر، بيروت.
٢٢. الطبقات الكبرى، ابن سعد، دار صادر بيروت.
٢٣. فضائل الصحابة، لأبي عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل ٢٤١هـ، تحقيق: وصي الله بن محمد عباس، جامعة أم القرى، السعودية ط١/ ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م
٢٤. ابن القيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة - بيروت ط٢، ١٣٩٥-١٩٧٥.
٢٥. محمد بن عبدالله الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني المكتب الإسلامي - بيروت ط: ٣، ١٩٨٥.
٢٦. المستدرك على الصحيحين، للحافظ أبي عبدالله محمد بن عبدالله الحاكم النيسابوري، تحقيق: حمدي الدمرداش، محمد المكتبة العصرية ط ١ - ٢٠٠٠م.
٢٧. مسند الإمام أحمد بن حنبل ت٢٤١هـ، شرحه وصنع فهارسه: أحمد محمد شاكر وأكمله حمزة الزين، دار الحديث القاهرة ط ١٩٩٥/ ١٤١٦هـ.

٢٨. مشكاة المصابيح.
٢٩. المصنف، للحافظ أبي بكر عبدالله بن محمد بن إبراهيم بن أبي شيبة ٢٣٥هـ، تحقيق: حمد بن عبدالله الجمعة ومحمد بن إبراهيم اللحيدان، مكتبة الرشد، ط ١ سنة ٢٠٠٤م.
٣٠. الموطأ، لمالك بن أنس ١٧٩هـ تحقيق: محمد محمد تامر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط١/ ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.